

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ

الاستعداد للموت

(039) سورة الزمر

اللقاء السابع من تفسير سورة الزمر | شرح الآيات 30-37

2022-05-21

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّيُّ وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا الْأَمِينِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا مُتَقَبَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَبَعْدَ.

أهمية التوحيد:

مع اللقاء السابع من لقاءات سورة الزمر، ومع الآية الثلاثين من السورة وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30)

[سورة الزمر]

قبل ذلك قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29)

[سورة الزمر]

يتحدث الله تعالى في هذه الآية، وفي عموم سورة الزمر عن قضية التوحيد، وبين أهمية التوحيد، وضلال الشرك (صَتَرَتِ اللَّهُ مَثَلًا زُجَلًا فِيهِ شُرَكَاءٌ مُتَشَاكِسُونَ) هذا الشرك (وَزُجَلًا سَلَمًا لِرِجْلِ هَلٍ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) الرجل سلم لرجل؛ شخص علاقته مع شخص واحد، عبد مع سيده، أموره منتظمة، يريد أن يرضي جهة واحدة، هذا صنف.

الصنف الثاني (فِيهِ شُرَكَاءٌ مُتَشَاكِسُونَ) يملكه خمسة أشخاص مثلاً، وكل شخص يريد منه شيئاً، فإذا أرضى هذا أسخط هذا، وإذا فرح هذا به غضب هذا منه، فقال تعالى: (هَلُ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا) الجواب: لا، (الْحَمْدُ لِلَّهِ) الحمد لله على أن الله واحد لا شريك له، الحمد لله أن جعلك من أهل التوحيد، الحمد لله أنك تعمل لوجه واحد وهو رضا الله، فإن رضي الله رضي عنك وأرضى عنك الناس، وإن سخط الله على رجل ما سخط عليه وأسخط عليه الناس.

الاستعداد للموت:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) لكن القضية مازالت متفاعلة بين الشرك والتوحيد، بين أهل الإيمان وأهل الكفران، فأراد الله تعالى أن يبين أن هذه القضية حسمها النهائي ليس في الدنيا، وإنما يوم القيامة، فقال: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) وهذا تخويف، وإنذار، لأن هناك موقفاً بين يدي الله تعالى (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنَّكَ) يا محمد صلى الله عليه وسلم (مَيِّتٌ) والميِّت باعتبار ما سيكون، لقوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَتَحْسِبُ نَسِيجَ يَحْمَدُكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)

[سورة البقرة]

أي سأجعل (إِنَّكَ مَيِّتٌ) أي إنك ستموت، عندنا مَيِّتٌ، وعندنا مَيِّتٌ، فرق بينهما بعض أهل اللغة فقالوا: الميِّت الذي سيموت، والميِّت هو من مات وانتهى الأمر، وقال بعضهم: بل هما سيبان، وأحدة مخففة من الأخرى، يقال: مَيِّتٌ، أو مَيِّتٌ لمن سيموت أو لمن مات، المتنبي يقول:



الموت قادم لا محالة

جمع بينهما الميِّت والميِّت، على كل (إِنَّكَ مَيِّتٌ) أي ستموت، ولما يقول تعالى لنبيه، وبدأ به (إِنَّكَ مَيِّتٌ) وهو رسوله، وهو حبيبه، وهو عبده، وهو نبيه، وهو ذو الخلق العظيم، فبدأ بموته، وبأن الموت قادم لا محالة فمن باب أولى أن يأتي للعباد الآخرين، فبدأ بنبيه، وفي ذلك أيضاً تنبيه، وكان الله تعالى يقول: سارعوا إلى الاستفادة منه لما نزل القرآن، سارعوا إلى القرب منه، سارعوا إلى إجابة دعوته، لأنه سيموت، وأيضاً (إِنَّكَ مَيِّتٌ) بيان للتوحيد.

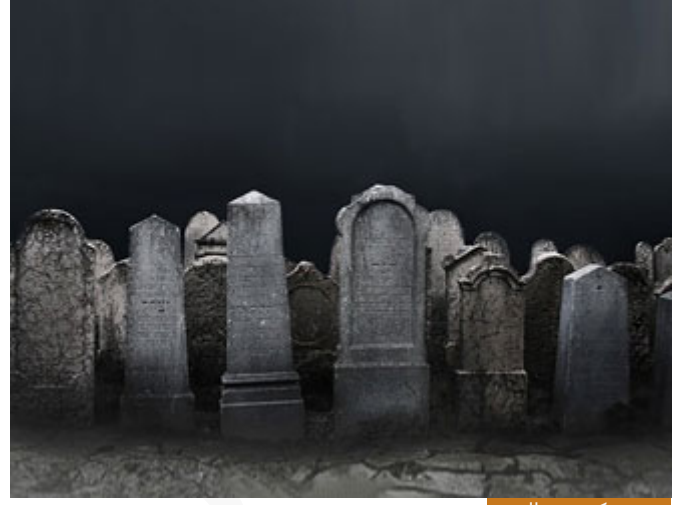
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي
اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)

[سورة آل عمران]

أيضاً بيان التوحيد، بمعنى أنه مهما بلغ من المنزلة فهو ميت، فهو بشر، حتى لا يغالي فيه قومه وأتباعه كما غالى أتباع عيسى عليه السلام فادعوا أنه ابن الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فكل هذه المعاني في قوله **(إِنَّكَ مَيِّتٌ)** بدأ برسوله، فنحن من باب أولى أننا سنقضي إلى الله، وسنمضي إليه، وبدأ برسوله فهلّموا يا من تسمعون تلك الآيات تنزل الآن للاعتماد بانيكم، والاستفادة منه فإنه سيمضي إلى ربه، **(إِنَّكَ مَيِّتٌ)** فإياكم أن تغالوا فيه، أو تدعوا فيه شيئاً ليس له فهو بشر، على عظم قدره لكنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر.



نحز محكومون بالموت

(وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) إنهم هنا للمشركين، هؤلاء الذين نسبوا لله ولدًا، هؤلاء الذين ادعوا لله ما ليس له، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام **(وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)** ونحن ميتون، كلنا ميتون، أي صائرون إلى الموت، لكن مع وقف التنفيذ، نحن محكومون بالموت مع وقف التنفيذ، وقد قيل: الموت سهم وجه إليك، وعمرك بقدر وصول السهم إليك، السهم انطلق، وعمرك هو تلك المسافة التي تفصلك عن السهم فقط، فنحن محكومون بالموت، لكن هناك وقف تنفيذ حتى يحين الوقت النهائي لتنفيذ الحكم، فإذا أدرك الإنسان أنه ميت فهو صائر إلى الله، وإذا أدرك أنه صائر إلى الله فينبغي أن يُعد العدة لهذا اليوم الذي سيقف فيه بين يدي الله.

يقول أحد الصالحين لابنه: يا بني إنك مُد جئت إلى الدنيا، استدبرت الدنيا واستقبلت الآخرة، فكن مستعداً لما تستقبله.

إنسان مسافر من عمان إلى العقبة، لما يخرج من عمان يستعد للعقبة أم ينظر وراءه إلى عمان؟ يستعد للعقبة، لأنه صائر إليها، فالإنسان يستعد لما سيقدم عليه لا لما أصبح وراءه، الدنيا أصبحت وراءنا مُد خلقنا، صارت الدنيا وراءنا، لأننا نمضي إلى الآخرة، الوجهة إلى الله فنستعد لما نتجه إليه لا لما مضى، وقد قال ابن القيم رحمه الله: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء، وذكر منها: إدمار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها، إدمار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، الدنيا وراءهم وهم يركضون وراءها وهي أصبحت خلفهم، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها، وكل هذا الكلام من باب الاستعداد للموت لا يعني بحال ترك العمل وقد قلت ذلك مراراً، نحن لا نترك العمل في الدنيا، ولكننا نترك العمل للدنيا، العمل في الدنيا مطلوب، الدراسة في الدنيا مطلوبة.

{ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القويُّ خيرُ

وأحِبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف">، وفي كلِّ خيرٍ، احرصْ على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزْ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني

فعلتُ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاءَ فعل، فإن ' لو ' تفتحُ عملَ الشيطان {

[أخرجه مسلم]

بل إنها مطلوبة من أجل الآخرة، لأن خيارات القوي في العمل الصالح أكثر من خيارات الضعيف، القوي يعلمه، القوي بماله، القوي بجاهه، خيارات القوي أفضل من خيارات الضعيف، فنحن يُطلب إلينا أن نعمل في الدنيا، لكن لا يجوز لنا أن نعمل للدنيا وإنما نعمل في الدنيا للآخرة، فالدين ليس بعداً عن الدنيا، لكنه بعد عن الحرام، بعد عن الحرام لا بعد عن الدنيا.

الحكم العدل يوم القيامة:



الله تعالى هو الحكم العدل يوم القيامة
(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) قدم (عِنْدَ رَبِّكُمْ) على قوله (تَخْتَصِمُونَ) طبعاً قد يقال مراعاة للفاصلة، أي (مَيِّتُونَ) (تَخْتَصِمُونَ) هذا صحيح، لكن أيضاً هذا التقديم تقديم أهمية، لأنه ليس المقصود هنا الاختصاص بقدر ما المقصود أين سنقف للاختصاص، فلما يكون هناك خصومة بين اثنين فأول ما يسأل الاثنان عنه من القاضي؟ لا يسألون عن موعد الخصومة، وعن وجودها، أو عدمه فقد استحققت، لكن يسأل الاثنان: من القاضي؟ لعلنا سمعنا عن عدله، أو البعض - نسأل الله السلامة- لعلنا سمعنا أنه يمكن أن يرتشى بمال أو بشيء فيغير الحكم فيكون الظالم دائماً يبحث عن هذا، والمظلوم يبحث عن العدل، والاثنان يريدان أن يعرفا من القاضي حتى يسألا عنه قبل أن يقفا بين يديه، فقدم (عِنْدَ رَبِّكُمْ) على (تَخْتَصِمُونَ) لأن الأهم هنا هو من سيحكم، والحكم هنا جل جلاله ربنا العدل (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) والوقوف بين يدي الله.

هنا قال: (تَخْتَصِمُونَ) أي يوجد خصومة، هنا الخصومة بمعنى الشرك مع التوحيد، المشركون مع الموحدين، الاختصاص هنا بمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم: هناك يوم آخر، وهم يقولون:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَكَاثُوا يُقُولُونَ "إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (47)"

[سورة الواقعة]

النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم: لا إله إلا الله وهم يعبدون أصنامهم لتقربهم إلى الله زلفى بزعمهم.
هذه الخصومة، فمن سيحكم؟ الله جل جلاله، (تَخْتَصِمُونَ) فيحكم الله بينكم.

أعظم أنواع الظلم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَنُورَى لِلْكَافِرِينَ (32)

[سورة الزمر]



الظلم أن تضع الشيء في غير موضعه

الآن الخصومة نتیجتها حكم، والحكم عدل، وهذا الحكم هو الذي سيأتي الآن، لا يوجد أظلم (فَمَنْ أَظْلَمُ) أي ليس هناك أشد ظلماً (مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ) ما الظلم؟ الظلم أن تضع الشيء في غير موضعه، فإذا جاءك مثلاً رجل له مكانة كبيرة في المجتمع، له مكانة بين قومه في المجتمع، فما قدرته، فقد ظلمته، فإن وضعته في المكان الذي لا يليق به فقد ظلمته، فإن وجهت إليه كلاماً قاسياً فقد ظلمته، كل ذلك لأنك لم تضعه في موضعه اللائق به.

{ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اتقوا الظلم، فإن

الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإن الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا

{ محارمهم

[أخرجه مسلم]

فمن أظلم إنسان في الأرض؟ (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ) قد تكذب عليّ فأنت ظالم، قد يكذب إنسان عليّ فهو ظالم، يقول: والله سمعته يقول كذا، ولم يسمعي أقول ذلك فقد ظلمني، أساء لسمعتي، ظلمني، لكن من أشد ظلماً منه؟ ذاك الذي يقول: إن الله له ولد، والعياذ بالله، هو هنا يكذب على الله، قيمة الظلم من قيمة من تفتري عليه الكذب، فإذا كان المشركون يفترون على الله الكذب فهم أظلم خلق الله، لذلك قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (13)

[سورة لقمان]

أعظم أنواع الظلم أن يشرك العبد بالله تعالى، أعظم نوع من أنواع الظلم أن يشرك العبد بالله تعالى، (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ) كذب على الله واسعة جداً، من ادّعى له الولد فقد كذب عليه، من عبد الأصنام فقد افترى على الله الكذب، من قال: هذا حلال، وهذا حرام بزعمه فقد افترى على الله الكذب، من المشرك؟ الله تعالى، فإذا كان إنسان لا علم عنده وقال لك: أنا رأيت هذا حلال لا شيء فيه، فقد كذب على الله، ما رأيك؟ هل تعلم حكم الشرع في المسألة؟ حكم ليس رأياً، هذا حكم في الشرع، يقول لك: هذا حلال وهذا حرام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ **إِنَّ**
الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116)

[سورة النحل]

إياك أن تقول: حلال وحرام، فالذي يقول حلال وحرام بغير علم يفترى على الله الكذب، وتحريم الحلال كتحلليل الحرام، يقول لك: أنا قلت له: حرام، هذا أفضل، لا، كيف أفضل! إذا كان حلالاً فلماذا قلت له حرام؟ قد تكون سددت له باب رزق، لقولك حرام، فتحريم الحلال كتحریم الحلال عند الله، فالكذب على الله، من؟ من يدعي أن الله أجبره على المعصية فقد كذب على الله، تقول له: لماذا تفعل هذا الأمر؟ هذا حرام؟ يقول لك: والله أنا مسير، مجبر، ما فعلته عن إرادتي، إليه أراد ذلك، لا تتدخل بحكمة الله، يكذب على الله، الذي يقول: الله يعطي الحلاوة للذي ليس له أضراس، يكذب على الله، لأن الله تعالى حاشاه ألا يكون حكيماً فيعطي عشوائياً، والذي يقول: إن الله تعالى يعامل أحبائه كما يعامل أعداءه فقد كذب على الله، والذي يسيء الظن بالله عز وجل فيظن أن الله لا ينصر أوليائه مهما تأخر الوقت فقد كذب على الله، لو ذهبت أعدد لكم أنواع الكذب على الله لما أنهت إلى الصباح، الكذب على الله واسع جداً، لذلك ينتبه الإنسان قد تكذب على إنسان، طبعاً هذا ظلم، وحقوق العباد لها مشكلة، لكن أهون من أن يكذب الإنسان على الله، لذلك لما رتب الله المعاصي ترتيباً تصاعدياً في سورة أخرى جعل أعلى أنواع المعاصي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ **** وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169)

[سورة البقرة]

ماذا في القرآن الكريم لما قالوا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا فَعَلُوا فَاجِسَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا فُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28)

[سورة الأعراف]

هذا افتراء، كذب على الله والعباد بالله، يفعل الفاحشة ويقول: الله أمرنا بها.

تكذيب المشركين القرآن الكريم:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ) الصدق هو كلام الله، القرآن الكريم، وقال: (إِذْ جَاءَهُ) بمعنى أنه كذب بالصدق فور مجيئه، أي لم يأخذ وقتاً من أجل أن يدرس ما فيه، إنسان بينك وبينه إشكال فقدمت له ورقة تثبت حقا فأمسكها هكذا، الورقة تحتاج إلى قراءة عشر دقائق، أمسكها هكذا وقال لك: خطأ هذه الورقة لا أقبل بها، قلت له: أقرانها؟ هل قرانها؟ أقرانها أولاً، ثم قرّر إذا كانت مزورة أم صحيحة، فهنا قال: (وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ) أي فور مجيئه، لم يأخذ وقته لأنه ظالم، لأن القرآن يعارض مصالحه فكذب به دون أن يقرأ ما فيه، ودون أن يطلع عليه (وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ) بالقرآن الكريم.

جهنم متوى للكافرين:

يقول تعالى: (الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَتْوًى لِلْكَافِرِينَ) المتوى؛ ثوى؛ أقام، قام في المكان؛ ثوى به، والمتوى يطلق على مكان الخير، ومكان الشر، (الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَتْوًى لِلْكَافِرِينَ) وفي سورة يوسف مرّ معنا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَرَأَوْدُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ **** إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَنَوايَ **** إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23)

[سورة يوسف]

وذكرنا ذلك، فالمتوى يأتي للنار، ويأتي للجنة، وهو مكان الإقامة (الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَتْوًى لِلْكَافِرِينَ) هذا استفهام؟ جوابه: بلى، لأن هذا استفهام منفي، فلو قلت:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ اللَّهُ يَأْخُذُ بِالْحَاكِمِينَ (8)

[سورة النين]



الاستفهام في الأصل يراد منه جواب

الجواب: بلى، لا تقول: نعم، تقول: بلى، جواب الاستفهام الذي يليه نفي، أما فعلت كذا؟ أليس كذا؟ جوابه: بلى للإقرار **(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَنُوءَى لِلْكَافِرِينَ)** الاستفهام في الأصل في اللغة العربية يراد منه جواب، إما لطلب التصور أو التصديق، بمعنى أن تقول: هل جاء محمد؟ الجواب: نعم أو لا، إذا سكتَ ولم تجب هناك مشكلة، سألك ينبغي أن تجيبه، السؤال يحتاج جواباً، وأحياناً: جاء محمد أم سعيد؟ هنا لا تقل لي: جاء أم لا، تقول لي: إما محمد أو سعيد، يجب أن تحدد لي واحداً، يجب أن تحدد لي أحدهم، الاستفهام يخرج عن معناه الأصلي إلى معان بلاغية، هذا من علم المعاني في اللغة العربية، من البلاغة، البلاغة فيها علم يسمى علم المعاني، منه معاني الاستفهام، يكون أحياناً استفهاماً إنكارياً أو تقريرياً، التقريري، كقوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1)

[سورة الشرح]

معني الآية لقد شرحنا لك صدرك، لكن جاء بصيغة الاستفهام للفت النظر **(أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)** لأن الاستفهام لما كان يحتاج جواباً فليفت النظر أكثر من أن تقرر الحقيقة فوراً من غير استفهام، كثيراً ما نستخدمه في حياتنا، فتقول لإنسان: لَمَّا جئت إليّ ألم أكرمك؟ لا تقول له: لقد أكرمتك عندما جئت، تقول: ألم أكرمك؟ حتى يستحضر الأمر في ذهنه فيقر بإكرامك له، فلما قال تعالى: **(أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)** معنى الآية لقد شرحنا لك صدرك، هذا استفهام تقريري.

الإنكاري؛ ابن وضعه والده في أحسن مدرسة في البلد، وبذل له جهداً، وجاء له ببعض المدرسين الخصوصيين في بعض المواد، ووفى له بيئة جيدة، وما طلب منه طلبات مرهقة خلال العام الدراسي، ثم في نهاية العام جاء بأوراق علاماته فإذا هو قد رسب، فيتجه إليه الأب ويقول له: أهذه نتيجة تعبي معك؟ ويسكت الأب، ويسكت الابن، ويطرق خجلاً في الأرض، هو يستنكر عليه بطريقة الاستفهام، ومثل ذلك قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيِّنَاتِ وَأَخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِتَانًا إِتَانًا لِّتَقُولُوا قَوْلًا عَظِيمًا (40)

[سورة الإسراء]

أي أهذا كلام يعقل؟ العرب كانوا يحبون البنين، ويدعون أن الملائكة أولاد الرحمن إناث، فقال: **(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيِّنَاتِ وَأَخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِتَانًا)** هذا استفهام إنكاري. نرجع إلى هنا: **(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَنُوءَى لِلْكَافِرِينَ)** هذا غالباً أغلب أهل التفسير قالوا: تقريري، كأن الله تعالى يقول: في جهنم منوى للكافرين، وقال بعضهم: يحمل الاستنكار أيضاً، الإنكاري، أي من شدة إعراضكم عن الله، وبعدكم عنه، فيخاطبهم الله تعالى: **(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَنُوءَى)** لكم، فهو استفهام تقريري أو إنكاري، يحمل الوجهين معاً.

من صدّق بمحمد فقد صدّق بالقرآن الذي جاء به:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ (33)

[سورة الزمر]

بالقرآن الكريم وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: جبريل، والصحيح والراجح هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي جاء بالصدق لهم. (وَصَدَّقَ بِهِ) في روايات كثيرة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لأنه أول من صدق بالقرآن، والنبى صلى الله عليه وسلم، (وَصَدَّقَ بِهِ) الهاء تعود على الصدق، أو على الذي جاء بالصدق، وكلاهما واحد، فالذي صدق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد صدق بالقرآن الذي جاء به، والذي صدق بالقرآن فقد صدق بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، (وَصَدَّقَ بِهِ) قد نرجعها على الصدق وهو أقرب مذكور، وقد نرجعها على كامل الكلام والذي جاء بالصدق، أي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، هو أبو بكر رضي الله عنه، وهو كل مؤمن صدق من بعد أبي بكر، وصدق به كل مؤمن، نحن إن شاء الله ممن (وَصَدَّقَ بِهِ) نصدق بالقرآن، ونصدق برسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) الذين يتقون عذاب الله تعالى من خلال طاعته.

عِظَمُ الْجَزَاءِ عِنْدَ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34)

[سورة الزمر]

ما تشتهيهِ الأنفُسُ، وتلذُّ به الأَعين.

{ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ' قال الله عز وجل: أَعَدُّتُمْ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ }

{ **ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر** }

[أخرجه البخاري ومسلم]



الجزاء عند الله جلّ جلاله

(مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) عند ربكم قبل قليل: (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ) استفتدنا من عند ربكم الحكم جلّ جلاله، القضاء، هنا إذا كان الجزاء عند الله أيضاً نستفيد عِظَمُ الْجَزَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، عِظَمُ الْجَزَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، فإذا كنت في مجلس، وصار نقاش حول موضوع، واستحققت بناء على التحكيم مبلغاً مالياً، فقلت: وما أدراني أن فلاناً يرجعه؟ فقام أحد الوجهاء في المجلس، وقال لك: المبلغ عندي، انتهى، فلان يقول: المبلغ عندي، وفلان من أهل الوجاهة، إذا كان لا يدفع هو سأدفع أنا، المبلغ عندي، ولله المثل الأعلى، فلما يقول جلّ جلاله (مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فالجزاء عند الله جلّ جلاله فما عساه يكون.

(ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) هناك قال: (أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) الآن (ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) الإحسان؛ هو أعلى مراتب التقوى، ما الإحسان؟ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فإذا كنت تعتقد أن الله يطلع عليك في كل لحظة من لحظات حياتك فأنت في أعلى درجات التقوى، لا يمكن أن تعصيه، فالإحسان هو درجة أعلى من التقوى، لكن هو مرتبط بالتقوى، فهو نهاية التقوى، الإحسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لِيُكْفَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35)

[سورة الزمر]

هذه اللام لام التعليل، أي ذلك الوعد الذي وعدهم الله به في الجنة: **(لِيُكْفَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا)** أسوأ؛ التكفير تكفير الذنوب أو تكفير السيئات غالباً في القرآن تأتي المغفرة للذنوب، والتكفير للسيئات، السيئات أعظم من الذنوب، الذنوب الصغائر، السيئات أكبر من الذنوب، تصل إلى الكبائر، فالتكفير للسيئات، الكفر في الأصل هو الغطاء، ومنه سمي الزرع كفاراً، لغةً، وذكرها القرآن الكريم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَاثِقُ زِينَةٌ وَتَتَاخَرُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ
سَقَطَ مِنْ سَّمَاءٍ ثِقَلٌ غَيْرُ رَافِعٍ وَقَلِيلٌ مِّنْ أَجْرٍ كَثِيرٌ مَّا يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ (20)

[سورة الحديد]



الكفر هو المكان الذي تكاثفت الأشجار فيه

أي الزرع، ولماذا سمي الزرع كفاراً؟ لأنهم يضعون البذرة في الأرض ويخفونها، والكفر هو الغطاء، وعندنا في دمشق، ويكثر من البلدان، وريف دمشق يقولون: كفر بطنا، والكفر هو المكان الذي تكاثفت الأشجار فيه فغطت وجه الأرض، فتكفير السيئات بمعنى أن الله عز وجل يسترها ثم يزيلها، العفو؛ إزالة، فالله عفو، وغفور، ويكفر السيئات جلّ جلاله.

فقال: **(لِيُكْفَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا)** أسوأ؛ اسم تفضيل، يوجد سبب ويوجد أسوأ، يوجد جميل، ويوجد أجمل، أي يوجد تفاضل، فإذا كان الله تعالى يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا وقد يكون هذا الأسوأ هو الشرك، لأن أسوأ ما يعمله الإنسان هو الشرك، وقد يقول لي: وهل الشرك عمل؟ نعم، لأنه يؤدي إلى عمل، فالذي يشرك بالله شيئاً سيعمل أعمالاً لمن يشركه، فهم لما أشركوا بالله سجدوا للأصنام، فالشرك عمل بهذا المعنى **(لِيُكْفَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا)** طبعاً:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَغُفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ
افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (48)

[سورة الأنعام]

لكلِّ إنسان أجر مكافئ لعمله يوم القيامة:

لكن هؤلاء تركوا الشرك وأعرضوا عنه فيكفر الله عنهم ذلك (لَا يَغْنِزُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) لمن مات مشركاً، لا لمن رجع إلى التوحيد (لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا) فمن باب أولى أن يكفر عنهم السيئ الذي عملوه، فإن كفر الأسوأ فقد كفر ما دونه.

(وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ) ما قال أجراً، أجرهم، أي الأجر المكافئ لأعمالهم، فكل واحد له أجر خاص، فالذي قضى عمره في طاعة الله عز وجل، بذل حياته لله ليس كمن قصر في بعض الواجبات، والذي داوم على الصلوات ليس كمن فوت بعضها، والذي أكثر من النفقات ليس كمن أنفق القليل واكتفى به (وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ).



الله تعالى يجزيك أجرك بأحسن عمل عملته

(بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) هذه أشبهها بتشبيهه (بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) هذا من كرم الله عز وجل العليم، في الجامعة إذا كان عندك عشر مواد، وأخذت بالمادة الأولى سبعين، والثانية ثمانين، والثالثة تسعين، كيف يخرجون المعدل؟ يجمعون العلامات العشرة ويقسمونها على عشرة، فيكون معدلك 67,7 هذا معدلك، ما رأيك في جامعة تقول لك: في كل سنة قدم المواد كلها وأعلى علامة نحسبها لك المعدل، فعملياً الطالب ينتقي المادة البسيطة، السهلة، يتقنها مئة بالمئة، ويحقق فيها 98 بالمئة، والباقي يأخذ خمسينات، ينجح فيهم نجاحاً، أو يأخذ ستين لأن النجاح ببعض الكليات يكون ستين، ومعدله 98 أعلى مادة، هل من جامعة تفعلها؟ مستحيل!

لما قال تعالى: (وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) فكان الله تعالى يريد أن يجزيك أجرك بأحسن عمل عملته لله فيثيبك عليه، أكثر عمل كان إخلاصاً لله تعالى فيه، أكثر عمل كنت فيه متقرباً من الله، أكثر عمل ضحيت فيه في سبيل الله، يجزيك أجرك به وكان أعمالك تقاس به، هذا من رحمة الله تعالى (بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ).

لكلِّ مؤمن من الآيات التالية نصيب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ اللَّهُ يَكْفِيهِمْ عَذَابُهُ (36)

[سورة الزمر]



الله تعالى كاف عبده

بلى، هذا استفهام تقريرى، الله تعالى كاف عبده، فإذا أعرضتم عنه، وتركتم نصرته أيها المشركون فإن الله تعالى يكفيه، (الَّذِينَ اللَّهُ يَكْفِيهِمْ عَذَابُهُ) وهذه الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن لكل مؤمن منها نصيب بقدر استقامته على منهج الله، وإخلاصه لله، فكلنا نسأل الله تعالى أن يكفينا، والله كافياً إن شاء الله (الَّذِينَ اللَّهُ يَكْفِيهِمْ عَذَابُهُ) وقرأ بعض القراء: عبده، ويوجد قراءة عباده، أي عباده المرسلين والمؤمنين.

(الَّذِينَ اللَّهُ يَكْفِيهِمْ عَذَابُهُ وَيَخَوِّفُكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) أي إنسان يخوفك بشيء فهو دون الله، لأن الله ليس فوقه شيء، إذا كان هناك طالب بالجامعة، والده ملك البلاد، فأراد أحد الطلاب أن يخوفه بالده، من والدك؟ مدير الشركة الفلانية، هل يخاف هذا الطالب؟ ابن الملك، فإذا خاف فهو أحمق، لأن الذي تخوفه به دون الملك الذي في البلد، فعندما يكون الله تعالى معك، والله مع المؤمنين، والله مع المحسنين، ومع المتقين، ومع الصابرين، لما تكون في معية الله، فإذا خوفك إنسان بأي شيء في الأرض ينبغي ألا تخاف لأنك مع الله.

الله تعالى لا يضل عبداً أراد الهداية:

(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) إذا أضلَّ الله إنساناً فليس هناك جهة في الأرض تستطيع أن تهديه، وأكرر بأن إضلال الله تعالى دائماً هو الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري، فالله لا يضل عبداً أراد الهداية، وإنما يضل عبداً أراد الضلالة، فقط احفظوها حتى لا أحد يقول لك: الله عز وجل أضل فلاناً وهدى فلاناً، نحن ليس لنا علاقة، الله تعالى أضلَّ من أراد الضلالة، وهدى من أراد الهداية، لكن لا يهتدي إنسان بنفسه.

{ اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْتُمَا ... وَلَا تَضَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا فَأَنْزِلْ لَنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَتَبَّتِ الْأَقْدَامَ إِنَّ لَاقِيَنَا إِنَّ الْأَلَى فِدَا بَعَا عَلَيْنَا }

[صحيح البخاري]

فالهداية من الله، والإضلال من الله لكن السبب من العبد، تريد الهداية فيهديك وتريد الضلالة فيضلك، نسأل الله السلامة (وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (37)

[سورة الزمر]

إذا أراد الله تعالى بعبد هداية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22)

[سورة الزمر]

كما جاء معنا قبل آيات في سورة الزمر، فإذا شرح الله صدر إنسان للهداية فإنه لا يستطيع أحد أن يضله بعد ذلك.



الأسماء الحسنى صفات ملازمة له جل جلاله

(وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ) فالله تعالى يهدي ويضل، لكن ليس من أسمائه الهادي والمضل، هو يضر وينفع، لكن ليس من أسمائه الضار النافع، كما يذكر البعض، لا، لا يسمى الله تعالى ضاراً، ولا يسمى مضلاً جلَّ جلاله، لكن من أفعاله أنه يهدي ويضل، لذلك ما كل فعل نستنبط منه اسماً، فإذا قلنا إن الله تعالى يكيد، نعم بمعنى المشاكلة رداً على كيدهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16)

[سورة الطارق]

لكن لا يسمى جلّ جلاله حاشاه الكائد، فالأسماء الحسنى حسنى، أصبحت صفات ملازمة له جلّ جلاله أي أصبحت اسماً، هو وصف بالأصل لما تقول: الله تعالى الرحيم، الرحيم وصف في الإنسان، فلان رحيم، وصف، لكن الله تعالى اسمه الرحيم، لأن الرحمة كلها عنده جلّ جلاله لكن لا تقول الله تعالى مضل، لا، لكنه يضلّ جلّ جلاله، فلا تسمي الله تعالى إلا بما سقى به نفسه، الأفعال دعها أفعالاً، يضل؟ يضل، نعم نؤمن بذلك، لكن لا نقول: الله مضلّ جلّ جلاله.

الله تعالى عزيز ذو انتقام يكافئ على الشر بالشر:

(الْبَيْتُ اللَّهُ يَعْزِيزُ ذِي انْتِقَامٍ) أيضاً استفهام تقريرى، أي الله تعالى **(يعزير ذي انتقام)** عزيز يندر وجوده، يعلب ولا يُعلب **(ذِي انْتِقَامٍ)** يكافئ على الشر بالشر، وحتى اسم المنتقم لم يرد، لكن الله ذو انتقام، ينتقم جلّ جلاله، لكن لم يرد أنه المنتقم، فالله تعالى ذو انتقام، أي يكافئ على الشر بالشر فينتقم في الدنيا، أو في الآخرة، أو في كليهما، فكم من أناس انتقم الله تعالى منهم في الدنيا، فجازاهم على شركهم وأعمالهم، ورأى الناس ذلك جهاراً نهاراً، وكم من أشخاص عاثوا في الأرض فساداً وأمهلهم الله، وترك لهم الحبل حتى فعلوا ما يخلو لهم، ومضوا إلى ربهم دون أن يذوقوا شيئاً من عذاب الدنيا كما تشاهده أعيننا، قد يكونون قد ذاقوا من عذاب النفس ما ذاقوا، لكن لم نشاهد عذابهم بأعيننا، لكن الله تعالى سينتقم منهم انتقاماً عظيماً يوم القيامة، فالانتقام في الدنيا قد يأتي، وقد يؤجل، وهو إن أتى فهو دفعة على الحساب من انتقام الآخرة، لكن الله عزيز، غالب لا يُغلب، وينتقم جلّ جلاله، بمعنى أنه يكافئ على الشر بالشر، وما علاقة العزيز بذي انتقام؟ علاقة واضحة، العزيز لا يمكن أن يفوت العقوبة، لا يمكن أن يترك مظلوماً دون أن يأخذ له حقه، عزيز، مصر في القرآن الكريم، العزيز له مرتبة كبيرة في قومه، فكيف يكون عزيزاً ثم يترك الناس ينهش بعضهم بعضاً دون أن يقتص لمظلومهم من ظالمهم، ولمقتولهم من قاتلهم؟ حاشاه العزيز جلّ جلاله، **(الْبَيْتُ اللَّهُ يَعْزِيزُ ذِي انْتِقَامٍ)**.

والحمد لله رب العالمين